الملامح العامة للمنهج النقدي عند الغزالي

وجدان كاظم التميمي

جامعة القادسية

اولاً : تمهيد :-

إن الفلاسفة الذين نقدهم الغزالي هم الفلاسفة الذين كانت لفلسفتهم من الرواج ما جعلها تتداول خلال القرون منذ عرفت الفلسفة إلى أن وصلت إلى عهد الغزالي ، وتتلقى بالقبول خلال هذه الحقب الطويلة .

إذ نرى إن الغزالي إستبعد المسائل التي إستبعدها أرسطو وإستبقى المسائل التي أبقاها أرسطو من فلسفته وحاول نقدها وخصوصاً بعد أن تلقتها الأجيال حتى وصل إلى العرب ، وأحدث في البيئة العربية ما أحدث ، مع ما فيه مما يخالف الدين ، فهو الجدير بأن يوفر له الغزالي جهده . وإذا كان أشد الناس افتتاناً بأرسطو وأشدهم قرباً إلى زمن الغزالي هم الفارابي وإن سينا ، وهما بدورهما قد عدلا بعض أفكار أرسطو ، إذن فإبن سينا والفارابي هما الفيلسوفان اللذان يعنيهما الغزالي بكتابه (تهافت الفلاسفة) .

وقد قال في مقدمة كتابه التهافت ما نصه (ليعلم إن الخوض في حكاية اختلاف الفلاسفة تطويل ، فإن خبطهم طويل ونزاعهم كثير، وآرائهم منتشرة ، وطرقهم متباعدة متدابرة . فلنقتصر على إظهار التناقض في رأي مقدمهم الذي هو الفيلسوف المطلق والمعلم الأول فإنه رتب علومهم وهذبها مزعمهم ، وحذف الحشو من آرائهم وانتقى ما هو الأقرب إلى أصول أهوائهم وهو ارسطاليس . وقد رد عللا كل من قبله ،حتى على أستاذه الملقب عندهم أفلاطون الإلهي ، ثم اعتذر عن مخا لفته أستاذه بأن قال :أفلاطون صديق ، والحق صديق ولكن الحق أصدق منه ، ...ثم المترجمون لكلام أرسطاليس ، لم ينفك كلامهم عن تحريف وتبديل محوج إلى تفسير وتأويل ، حتى أثار ذلك نزاعاً بينهم وأقومهم بالنقل والتحقيق ، من المتفلسفة بالإسلام (الفارابي) أبو نصر وإبن سينا ، فنقتصر على إبطال ما إختاراه ، ورأياه

الصحيح من مذهب رؤسائهما في الظلال)[1] .وهذا الكلام من الغزالي يبين لنا طريقته التي إتبعها في النقد وهي ما إعتمده رؤساء المذهب الفلسفي وهم إبن سينا والفارابي .

أما الغرض حدا بالغزالي إلى تأليف (التهافت) فهو ما شرحه هو بقوله (إني إلتمست كلاماً شافياً في الكشف عن تهافت الفلاسفة وتناقض آرائهم) ويقصد الغزالي بالأخطاء هنا التي تتعارض مع المبادئ والأصول الدينية ، فهذا اللون من الأخطاء خاصة ،هو الذي من أجله ألف الغزالي كتابه هذا .

وقد جاء في إفتتاحية كتاب التهافت ما يوضح هذا إذ قال (أما بعد ...فأني رأيت طائفة يعتقدون في أنفسهم التميز عن الأتراب والنظراء ، بمزيد الفطنة والذكاء . قد رفضوا وظائف من العبادات وإستحقروا شعائر الدين ، من الصلوات ، والتوقي من المحظورات وإستهانوا بتعبدات الشرع وحدوده ولم يقفوا عند توقيفاته وقيوده .... أما مصدر كفرهم سماعهم أسماء هائلة : كسقراط وبقراط وأفلاطون وأرسطاليس وأمثالهم وأطناب طوائف من متبعيهم وضلالهم في وصف عقولهم ، وحسن أصولهم ودقة علومهم : الهندسية ، والمنطقية ، والطبيعية والإلهية . وإستبدادهم – لفرط الذكاء والفطنة – بإستخراج تلك الأمور الخفية . وحكايتهم عنهم إنهم – مع موازنة عقولهم وغزارة فضلهم – منكرون للشرائع والنحل ، وجاحدون لتفاصيل الأديان والملل ، ومعتقدون إنها نواميس مؤلفة وحيل مزخرفة ...)

إذن حرص الغزالي على الدين وأهله وهو ما دفعه إلى نقد الفلاسفة في بعض آرائهم ونظرياتهم .

والغزالي في النقد دائماً يميل نحو المذاهب الكلامية وخصوصاً المذهب الأشعري حسب ما يرى البعض ، فكان ناقداً كلامياً للآراء الفلسفية . فهو آمن دينياً وحاول إثبات عقائده على عكس الفلاسفة فهم يبحثون أولاً ثم يؤمنون بالنتائج التي توصلوا إليها .

وقد حاول الغزالي نقد المنهج الذي إعتمده الفلاسفة وهو المنهج العقلي لأن العقل وحده لا يستطيع الوصول إلى الحقيقة الكاملة المطلقة ، إذ إن العقل لا يدرك بالعلوم الأولية أو الأزلية ولا العلوم المكتسبة حقائق الأديان ، إذ إن الغزالي يقسم العلوم إلى قسمين هما :-

١. أزليات .

٢. متغيرات .

---

[1] - الغزالي –أبو حامد محمد بن محمد – تهافت الفلاسفة - تقديم أحمد شمس لبدين دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - ط٣ - ٢٠٠٨م - ص ٤٣- ٤٤ .

فالمتغيرات : هي العادات والأخلاق وهي متغيرة بتغير الشعوب والأزمان .
والأوليات : كالعلم بجواز الجائزات ، ووجوب الواجبات وإستحالة المستحيلات [٢] .

فحقائق الإيمان وهي أوامر الله ونواهيه ووحدانيته والبعث والعقاب والثواب وحشر الأجسام... لا تدرك إلا بالتعاون بين العقل وبأنوار الشريعة التي مصدرها القرآن . فالقرآن من العقل بمثابة النور من العين ، فكما إن العين لا يمكنها أن تدرك الأشياء إلا بنور الشمس ، كذلك لا يمكن إدراك الحقائق الإلهية إلا بنور القرآن والشرع . وهذا هو المنهج الذي يطلبه الغزالي لحقائق الإيمان .

وطلب الغزلي للمعرفة بشكل عام يرجع إلى ثلاثة أسباب هي : -

أولاً : لقد طلب الغزالي العلم ليتخذ من التعليم مهنة لتحصيل القوت . ولكنه عندما حصل على ما يكفيه منه طلب المزيد من المعرفة .

ثانياً : إن الغزالي بجانب ما عرف به في أول عمره من حب المنصب والجاه كان يعتبر نفسه صاحب رسالة . ورسالته هي بعث الدين وإحيائه .

ثالثاً : التعطش الفطري لإدراك الحقائق [٣] . ولكنه يختلف معهم في أدلتهم العقلية حول إثبات هذه المسألة .

وهناك أمر مهم جداً ألا وهو أن الغزالي قد عارض الفلاسفة في عشرين مسألة فقط – ثلاث كفرهم بها وسبعة عشر مسألة بدعهم بها – وإذا قسنا عدد هذه المسائل إلى المسائل التي إتفق معهم بها لكان ما إتفق معهم أكثر وهذا دليل على إن الغزالي لم يكن هادماً للفكر كما صوره البعض .

وإن الغزالي بعد أن إتنقد الفلاسفة في هذه المسائل قد قدم البديل أو النظام المعرفي البديل المعتمد على أسس معينة منطقية عقلية قرآنية إشراقية وذلك في كتابه (إحياء علوم الدين) وكذلك كتابه (معيار العلم) الذي يعتبر هو منطق للعلوم ومقدمة لها بينما (الأحياء) هو نظرة جديدة للعلوم التي عالجها الفلاسفة وغيرهم من العلماء .

وبلغة عصرنا فالغزالي رجل منظر أي صاحب نظرية بالنسبة للعلم . ولكن هذه النظرية فيها بعض مواضع الخلط والتخبط على الباحث إيضاحها وتوضيحها وخصوصاً في الأسس المنهجية التي إعتمدها الغزالي في نقده .

---

[٢] - باسيل – فكتور سعيد – منهج البحث عن المعرفة – دار الكتاب اللبناني – بيروت – بدون تاريخ – ص٢٦-٢٧ .
[٣] - المصدر نفسه –ص٢٣ -٢٥ .

ثانياً : الأسس العامة للمنهج النقدي في كتاب (تهافت الفلاسفة) :-

الملاحظة الأولى : المنهج المتبع في هذا الكتاب يبينه الغزالي من خلال ثلاث نقاط أو ثلاث مراحل هي :-

أ- نقل مذهب الفلاسفة أولاً .

ب- تفهم هذا المذهب الفلسفي .

ت- فضح القبائح اللازمة على هذا المذهب الفلسفي .

وهذا ما أكده بقوله (أن ما نذكره من نقل مذهبهم أولاً ثم تفهيمه ثانياً ثم من القبائح اللازمة عليه ثالثاً) [٤] .

مما سبق يتضح أن الغزالي لم يصرح برأي له حول المسائل التي يتناولها بالنقد ، فكان عليه أن يتبع هذه الخطوات الثلاث بخطوة رابعة وهي إيراد رأي الغزالي حول هذه المسألة وبصورة مفصلة وبأدلتها الصريحة .

الملاحظة الثانية : نلاحظ أن المنهج الذي يتبعه الغزالي في ترتيب المسائل يكون منهج منطقي بحيث يتبع التسلسل المنطقي للمسائل التي يوردها فلا أهمية لنوع المشكلة التي يتناولها كأن تكون مهمة بالفكر الإسلامي أو غير مهمة ، كلا ، بل المهم أن تكون المسألة مرتبطة بالتي تسبقها ، أي ارتباط اللاحق بالسابق قدر الإمكان . فنراه يربط المسائل الثلاث الأولى وكلها تدور حول موضوع واحد وهو العالم وقدمه وحدوثه ... إلخ ، أما المسائل الرابعة والخامسة فإنها تتعلق بإثبات الله الصانع لهذا العالم وإثباته وإثبات الصفات الإلهية له ...إلخ ، مع العلم إن المسألة الرابعة تعتبر كحلقة وصل بين العالم والله الصانع لهذا العالم وهكذا بقية المسائل .

وهذا الأمر يؤدي بنا إلى القول بأن الغزالي قد رتب مسائل الكتاب ترتيباً موضوعياً أي إعتمد على المواضيع ، فكل موضوع يتبعه موضوع يتصل به وهكذا إلى نهاية الكتاب ، وكما قلنا سابقاً المهم هو إرتباط المواضيع ، وليس أهمية ذلك الموضوع ، بحيث نجد المسألة العشرين ، وهي (إنكار البعث الجسدي) عند الفلاسفة وتعتبر من المواضيع المهمة في الفكر الإسلامي لما يترتب عليها من شبهات وملاحظات ، ولكنها موضوعه في أخر الكتاب .

[٤] - الغزالي - ابو حامد - تهافت الفلاسفة – ص١٤٤ .

ثالثاً : مرجعيات المنهج النقدي عند الغزالي :-

إتخذ الغزالي عدة مرجعيات ركن إليها في النقد وأسس عليها النقد وهي : -

١-الإعتماد على الرجع العقلاني أو إعتماد العقل ومسلماته ، على إعتبار إن الفلاسفة إعتمدوا هذا المنهج وأسسوا عليه كل أفكارهم وآرائهم ، فهو ينقد بنفس الأداة والوسيلة التي اعتمدوها .

٢-وقد نجده يستخدم أو يعتمد مرجعية أخرى وهي المنهج الكلامي أي الاعتماد في إثبات مسائل معينة على النص القرآني ضد المرجعية العقلية عند الفلاسفة فيعارض آرائهم بنص قرآني معين .

٣-المرجعية الثالثة له في النقد هي الدليل العقلي المؤيد بالتجربة الصوفية – حسب إدعاء الغزالي – وهذه المرجعية واضحة لديه وخصوصاً بعد مرحلة الشك التي مر بها ويذكرها في كتابه (المنقذ من الضلال) .

وهذه المرجعية الأخيرة هي التي ركز عليها الغزالي كثيراً واعتمدها في كتبه وخصوصاً المتأخرة منها . بل هي تعتبر أو تعد مزج للمرجعيتين السابقتين. أو بها يتمثل التوفيق بين العقل والنقل . وهذا المحور هو أساس الفلسفة الإسلامية . ولكن كلاً حسب توظيفه وطريقته في التوفيق .

من هذا نشاهد تخبط الغزالي في المرجعيات التي اعتمدها في نقد الفلاسفة أو في أي نقد أخر سواء كان للفلاسفة أو لغيرهم [٥] .

رابعاً : المنهج النقدي بين الغزالي وإبن رشد :

المتتبع للفكر الإسلامي وخصوصاً الفلسفي منه ، يلاحظ إن عمل الغزالي في كتابه (تهافت الفلاسفة) وإبن رشد في كتابه (تهافت التهافت) يعد أول عمل فلسفي نقدي بصورة صريحة واضحة وذات معالم منهجية محدودة لدى كلاً منهما وخصوصاً لإبن رشد .

إذ نشاهد عن الفلاسفة السابقين لهما لم يكونوا ناقدين بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة أو إن نقدهم لم يكن على منهج صحيح وواضح ، وإنه يقتصر في الأغلب على رأي محدد أو فكرة محددة ، أو إتجاه فلسفي محدد أو فيلسوف معين ، فالسابقون للغزالي وإبن رشد لم نجد لديهم منهج نقدي متكامل يشمل جميع الأفكار والآراء السائدة في زمانهم .

[٥] - ينظر – الغزالي – أبو حامد - المنقذ من الضلال – في تقسيمه للطالبين .

لذا تعد محاولة الغزالي من أولى المحاولات النقدية ذات المنهج المحدد – وإن تخبط فيه الغزالي بعض الشيء – ثم تبعه إبن رشد بمنهج نقدي ذا صرامة علمية يعتمد فيه أساساً على المباديء الأسس العقلية التي تسالم عليها جميع الطالبين للعلوم من الفلاسفة وفقهاء ومتصوفة ... إلخ .

كانت محاولة الغزالي في نقده للآراء ذات أبعاد متعددة منها :-

الأبعاد المعرفية الصرفة : إي التي حاول فيها نقد الطرف المقابل في سبيل المعرفة أولاً وفقط وهذا ما حصل في نقده للفلاسفة في أول كتاب خصصه لهذا الغرض وهو (مقاصد الفلاسفة) فكان فيه محايد ولا يروم من كتابه هذا سوى طلب الحق والمعرفة الصحيحة دون تحامل ازدراء ... إلخ من الأغراض الأخرى .

الأبعاد الإيديولوجية صرفة : كما حدث في نقده الفلاسفة في كتابه الثاني (تهافت الفلاسفة) إذ تلاحظه كان فيه غير منصف في أغلب الأحيان ومتحامل على الفلاسفة بالشيء الكثير وإن صرح في مقدمة كتابه بأنه أراد نصرة الحق ورد الباطل الذي جاء به الفلاسفة – حسب إدعائه – وبأنهم ملبسين وينكرون ضروريات الدين ويترفعون على العباد بأنهم أهل نظر وفكر وإنهم – أي الفلاسفة – وصلوا إلى الحقيقة المنكرة وإن الشرائع ما هي إلا خزعبلات وأوهام وأساطير ... إلخ من الآراء التي حاول إلصاقها بالفلاسفة ، وهو في كل هذا كان يتخذ أما منهجاً كلامياً صرفاً في نقده لهم على اعتبار إن الغزالي من أعلام وأقطاب المدرسة الكلامية الأشعرية . فكان ينتقد الفلاسفة وفقاً للمنهج الكلامي الذي يعتمد على نصوص الآيات القرآنية أولاً وبالذات ثم العقل ثانياً وبالمرتبة اللاحقة .

أو إنه ينقد بمنهجهم العقلي الذي اعتمدوه هم أصلاً ويحاول تفنيد أدلتهم بدليل عقلي أخر أو من خلال إثبات تناقضهم . أو إنه ينقدهم –حسب إدعائه – بمنهج عقلي ولكنه يعتمد على الإشراق والإلهام الإلهي . لأن الغزالي يقول بأن الأدلة العقلية وحدها لا تؤدي إلى الحق والصواب ، وهذا الأمر هو الذي أدى بالغزالي بمرحلة من حياته إلى الشك كما تحدث هو حولها في كتابه (المنقذ من الضلال). فلجأ إلى الدليل العقلي المؤيد بالإلهام أو حسب تعبيره نور يقذف بالصدر . فوصل الغزالي إلى الحقائق بدليل عقلي لا بترتيب برهان وإنما بنور إلهي يلقى في بروع الشخص .

وهذا المنهج المتبع عند الغزالي نلاحظه متخبت فإنه تارة يعتمد العقل وأخرى النقل وثالثة المنهج الصوفي الإشراقي وهذه المناهج غير معتمدة عند الفلاسفة ماعدا المنهج العقلي وهو الوحيد المعترف به لديهم فكان على لغزالي أن يناظرهم بدليلهم وحجتهم واسلوبهم .

ولكننا لا نتحامل على الغزالي كثيراً ونأخذ كلامه على الإعتراف بصدقه بقوله بأن ما تصدى لفلاسفة وسفه أحلامهم وآرائهم إلا في سبيل نصرة الدين ، وإعلاء كلمته وخصوصاً إذا علمنا بأن الغزالي كان في وقت قد عصفت فيه المحن سواء العقائدية أو الفكرية أو السياسية على الأمة الإسلامية ومنها غزو الصليبيين على العرب المسلمين والأمة الإسلامية وخير من وضح هذا الأمر الأستاذ (أحمد شمس الدين) في تقديمه لكتاب الغزالي (تهافت الفلاسفة) إذ عالج كثير من هذه الظروف والمحن المحيطة بالأمة آنذاك ومدى تأثيرها على الغزالي وإنتاجه الفكري وإتصاله بالسلطة الحاكمة ثم عزلته في أخر حياته .

فهذه الظروف كلها كان لها أثرها الفاعل في منهج الغزالي وفي إسلوب كتابه وحياته في آن واحد . حتى إننا نلاحظ إن كتابه وآراءه تعبر عن مراحل فكريه مختلفة مر بها الغزالي ونجد في بعضها التعارض والتقاطع في أحيان أخرى وهذا ما حكاه هو في سيرته الذاتية في كتابه (المنقذ من الضلال) .

نرجع الآن إلى الاسلوب النقدي له مرة أخرى فنلاحظ إن لنقده بعداً ثالثاً ألا وهو البعد السياسي وخير دليل على هذا البعد هو نقده للفرق الباطنية التي سادت ذلك الزمان ، وسبب إنتشارها يعود إلى الطبقية التي حلت بالمجتمع فنلاحظ الحكام وأتباعهم وأعوانهم ممن يتمثلون بالدين ويعتقدون إنهم حماة للدين يعيشون حياة فارهه وسعيدة ، وعوام الناس يعيشون في فقر وضيق .

فأدى هذا الأمر إلى تمزق كلمة الأمة وتفرقها وبدأ الناس يتقاتلون على المنصب والسلطان كلاً يريد تكوين مملكته الخاصة به فظهرت بسبب ذلك ممالك متعددة في الدولة الإسلامية الواحدة لكل مملكة خليفة ورئيس يدعي السلطان الإلهي لنفسه وإنه ممثل الله على الأرض وعلى الناس إطاعته ، وضاعت هيبة وسلطان الخليفة العباسي في بغداد .

فكل هذه العوامل أدت بالناس إلى الإلتجاء إلى المخلص وإعتقدوا إن هذا المخلص هو الإلتجاء إلى الغيبيات ومخاريف العادات فظهرت الفرق الباطنية التي تدعي الإتصال بالإمام الغائب الحق وإنه عن طريق هذا الإمام يمكن تخليص الناس من الظلم والعدوان ... إلخ .

وهذا الأمر الذي نشاهده اليوم في الأمة الإسلامية وخصوصاً بعد تمزق وحدتها وتفرقها وتسلط العدوان عليها من إحتلال أو حكام ظالمين ... إلخ من عوامل الفرقة والخلاف فظهرت تيارات إسلامية متشددة ومتعصبة من جماعة الأخوان أو حماس أو جماعة أسامة بن لادن وغيرهم ممن يدعي الإسلام ويحاول أن يطبق الإسلام بالقوة ويرمي الآخرين بالكفر.

أو ظهور تيارات باطنية وصعود نجمها مثل جماعة اليماني و الحسني في العراق أو الزيدية في اليمن وغيرها من الحركات الإسلامية الباطنية . أو حتى عندنا نحن الشيعة الإمامية ففي هذه الأيام هناك أحداث كثيرة تدعي قرب ظهور الإمام المهدي (عج) وعلى الناس ترقب ظهوره ، وغياب الوعي العلمي المعتمد على العقل ومنجزاته والإكتفاء بالقضايا الروحية الصرفة فقط لأنها تخفف من وطأة الظلم المفروض على الناس.

خامساً : دوافع المنهج النقدي عند الغزالي

وبعد هذا الإسترسال الطويل نعود إلى الغزالي ونوجز الأبعاد أو الدوافع أدت به إلى المنهج النقدي في زمانه وهي :-

أ- البعد المعرفي .

ب- البعد الإيديولوجي .

ت- البعد السياسي .

ويمكن إضافة بعد رابع وهو البعد العقائدي لكن هذا البعد يمكن أن يتضمن ضمن البعدين الثاني والثالث أي الإيديولوجي والسياسي على إعتبار إن الغزالي حاول الدفاع - حسب رأيه هو – عن عقيدة أهل لسنة وحراستها من تشويش أهل البدلة (كما ورد في كتاب المنقذ من الضلال) . ولكن هذا الدفاع لم يكن مبنياً على أساس إيماني صرف وإنما كانت الأدلجة والسياسة تلعب دوراً أساسياً في هذه الدوافع بإلاضافة الى الدافع المعرفي الذي لا يمكن تجاهله ، و الذي يؤكد قولنا هذا هو اعتراف الغزالي في كتابه (المنقذ من الضلال) عندما يتحدث عن تركه للسياسة وتوجهه الى الله سبحانه و تعالى بالإنصراف للعبادة .